ويعقد عبد القاهر بعد ذلك فصولاً كثيرة يتناول فيها الحديث عن التشبيه والاستعارة والتمثيل ؛ فيحلّل جمال التشبيهات المختلفة وما يتصل من ذلك بطرفي التشبيه أو وجه الشبه أو طرافة الصورة ، كما يحلّل جمال الاستعارة ، ويبيّن الفرق بينها وبين التمثيل ... وهو في كل ذلك إنما يستعين بالشواهد والأمثلة التي يحلّلها ويعلّق عليها بما يدلّ على نفاذ فكره وإمامته في النقد والبلاغة وحُسن التذوّق .

وكما كان الإمام الجرجاني أرسى أركان علم المعاني في كتابه (دلائل الإعجاز) فكذلك أوضح في (أسرار البلاغة) كثيراً من أسرار الجمال في الصورة الأدبية ، وبيّن معالم التشبيه والاستعارة ، وكان له فضل كبير في تحديد معالم الفنّ الذي عُرف فيما بعد بعلم البيان .

والجرجاني لايخفي سبقه إلى ذلك حين يردّ على من يزعم أنه مسبوق إلى ما ذكر في فنّ البيان ، فيقول إن مايتحدث عنه أمر معروف عند من يحسن ذوق الكلام ، ولكنه مجهول « من حيث لم تنبثق فيه أوضاع تجري مجرى القوانين التي يرجع إليها فتستخرج منها العلل في حُسن ما استُحسن وقبح ما استهجن »[1] . إنه يريد أن يصل إلى أن يجعل للذوق أساساً من العلم يرتكز إليه ؛ فلا استحسان إلا بعلّة ،

(١) اسرار البلاغة : ٢٣٩